المقطم جبل الأولياء

هو جبـل... ولكنه ليـس كأى جبل آخر فهوصاحـب أكبر قدر من الأحـداث الحقيقية والحكايات فى هذه الدنيا. صحيح إنه ليس الجبل الوحيد الذى دخل التاريخ من أوسع أبوابه، فهو ليس طور سيناء الذى ذكر فى القرآن الكريم، ولا جبل أحد الذى وصفه الرسول ﷺ بأنه جبل يحبنا ونحبه ولا حتى جبلا من جبال مكة الذين سبق لهم شرف الإطلال واحتواء البيت العتيق.

إلا إنـه جبل المقطم الذى ما إن وصل جنـد عمرو بن العاص الفاتحون بر مصر ورأوه لأول مرة حتى أصيبوا بحالة من الارتباك الكبير لأنهم لم يجدوه يختلف عن جبال أخرى شـاهدوها. وكأن الجبل ليس من أصحاب الطبيعة المصرية إلا إنهم تأكدوا بعد سـاعات وربما لحظات... إنه المقطم جبل المصريين وصاحب الألف حكاية وحكاية والتى قد نحكى بعضا منها فالحكايات تتعدد والواقع تلبسه المبالغة فى كثير من الأحيان.

فربما قد يستوقفنى من لا يصدق، ولكنه المقطم ذلك المجهول الذى نتحـدث عنه ونعلم أنه فى النهاية لـن يكون أكبر الحكايات المصرية. فـإذا كنا قد روينا بعضا من قصص القادمين إلى بر مصر واذا كنا تحدثنا عما فعله الناس فى سـبيل الخير، فالأولى بنا أن نقرأ هذه الأوراق وأن نتعرف إلى أشخاص أصبحوا فيما أصبحوا نوادر مصرية صميمة يعرفها سكان المحروسة.

الورقة الأولى

غراس الجنة

يذكر كتاب «فتوح مصر وأخبارها» لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشـى المصرى رحمـة الله عليه، نقلا عن عبد الله صالح حدثنا الليث بن سعد أن سأل المقوقس عمرو بن العاص أن يبيعه سفح المقطم بسبعين ألف دينار فتعجب عمرو من ذلك وقال أكتب فـى ذلك إلى أمير المؤمنين. فكتب بذلك إليه عمر فكتب اليه عمر سـله فقال: إنا لنجد صفتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة.

فكتب بذلك إلى عمر.. فكتب إليه عمر: إنا لا نعلم غراس الجنة إلا للمؤمنين فأقبر فيها من مات قبلك من المسـلمين ولا تبعه بشـىء فكان أول من دفن فيها رجل من المعافر يقال له عامر فقيل عمرت.(٢٩)

أمـا أول قصـة للمقطم فقد حار الناس فى معرفتهـا إلا إننا يمكننا القـول إنه ومنـذ تفتحت أعين الناس عليه وهـو موطن الخير والبركة بينهم ولهذا تتعدد الروايات.

فالمقريـزى يحكى إنه كان فى الأصـل جبلا للذهب والفيروز, وإنه كان يسـكنه يومـا رجل يدعى مقيطـام الحكيم وقد ذاعت شـهرة هذا الحكيـم حتى وصلت إلى من يملـك مصر فطلب منه أن يخرج له وذهب إلى المقطم الذى لم يستطع أحد من قبل أن يصل إليه.

وقـد كان المقطم أكثر الجبال التزامـا بالطبيعة المصرية وخاصة قيم التسامح والعطاء، ولهذا لما كانت الليلة. والكلام لابن الزيات. التى كلم فيها الله موسـى أوحى إلى الجبال إنه مكلم نبيـا من أنبيائه على جبل منها فتواضع جبل طور سـيناء وتصاغر إجلالا لله. فأوحى الله تعالى إلى الجبال أن يجود كل جبل بشىء مما عليه فجاد كل جبل بشىء إلا المقطم الذى جاد بجميع ما كان عليه من شجر ونبات وماء فعوضه الله تعالى بأن جعل فى سفحه غراس أهل الجنة.(٣٠)

وبرغـم أن القصة لا يوجد من يؤكدها بشـكل قاطع لتكون لنا دليلا فـى جبل المقطم، كما لا يوجد أيضا من يؤكد أن راويها لم يكن أكثر من مغرم بهذا البلد فإننا نقرأ كل ما قيل.

فيقال وكما جاء فى كتاب «الدرر المنظم فى زيارة جبل المقطم» للإمام العارف موفق الدين أن أكبر إخوة يوسـف سـنا وأرشـدهم رأيا قد أقام فـى هذا الجبل أمام تنور فرعون فى المكان المعروف الآن بمشـهد إخوة يوسف.

وقد كان هذا التنور يوقد عليه النار فإذا رآها الناس اجتمعوا. ولهذ يعد التنور أقدم بكثير من مشهد إخوة يوسف إلا إنه هدم فى زمن أحمد ابن طولون.

إلا إن مـا نعرفه يقينا إن جبل المقطـم يضم الكثير من الأودية التى قد لا يعـرف عنها النـاس الكثير. ففيه وادى المسـتضعفين الذى كان يعيش فيه سـلطان المحبين عمر بن الفـارض ووادى الملك ووادى دجلة القرقوبى

الـذى بناه وكيل التجار فى مصر فـى عهد الدولة الفاطمية، ومحراب ابن الفقاعى وهو أحد الصالحين، وكهف السـودان الذى تصفه د/ سـعاد ماهر فى «مسـاجد مصر وأولياؤها الصالحون» بأن قوما من السـودان حفروه فى هذا المكان وتعبدوا فيه. فهو فى الأصل كهف للعبادة ثم زاد عليه الأندلسى البراز فى القرن الخامس الهجرى ووضع إليه طريقا.(٣١)

وأما المسـاجد.... فهناك مسـجد الكنز واللؤلؤة المشـهور بإجابة الدعـاء ومسـجد دكة القضاة التى كانوا يجلسـون عليهـا لرؤية هلال رمضان ومسـجد القضاعى وبناه كافور الإخشـيدى وبـه محراب يقال إنـه قد بناه حاطب بن بلتعة رسـول المسـلمين إلى المقوقس وهو أوائل المحاريب فى مصر.

❑❑❑

الورقة الثانية

في رحاب الصالحين

مرة أخرى نعود إلى أول المسلمين الذين جاءوا إلى مصر فنصل إلى مسجد عقبة بن عامر الصحابي الجليل الذي كان من أوائل من توفاهم الله تعالى من صحابة الرسول ﷺ بأرضها.

ولعقبة بن عامر تاريخ كبير كصحابي بايع الرسول وشهد فتح الشام ومصر مثل غيره من صالحي هذا العصر فقد كان مسلما حنيفا يخاف الله ويحسن لسان العربية وكان من الثمانين صحابيا الذين وقفوا على قيد جامع عمرو بن العاص، وقد روى عن الرسول ﷺ الكثير من الأحاديث.

تولى عقبة إمرة مصر في عهد معاوية بن أبي سفيان الذي أمر له بأرض عرفت باسم منية عقبة والتي حرفت فيما بعد إلى منطقة ميت عقبة الشهيرة، ويقال إن صلاح عقبة بن عامر كان واضحا حتى إن صحب الرسول ﷺ في حياته وإنه توفي في اليوم نفسه الذي توفيت فيه السيدة عائشة رضي الله عنها وأرضاها.

ويقال أيضا إن قبره كان معروفا للمصريين إذ إنه ضمه مع صحابي آخر وهو أبو هبرة الغفاري، ولا غرابة في أن تكون داره الأخيرة في مصر وقد كانت له من قبل الدار الجميلة في الشام والصحبة المباركة في المدينة المنورة إلا إن المثوى الأخير كان في أرض مصر.

ولا غرابة أيضا عندما نصفه بالمحدث والشاعر وأول من ساعد فى جمع القرآن الكريم وأول من نشر الرايات على السفن كما أشار د.عاصم رزق فى موسوعته «أطلس العمارة الإسلامية والقبطية فى مصر» وبقى ضريحه بالقرب من مسجد الإمام الليث بن سعد ﷺ جهة بساتين الوزير. وقد اهتم به صلاح الدين يوسف بن أيوب الذى هدم القبة وأنشأ بدلا منها قبة فخيمة جديدة فى عهد الملك الكامل محمد ابن العادل الأيوبى:

وأما المسجد والضريح الموجودان الآن وما ألحق بهما من سبيل ومكتب للأيتام ومساكن للموظفين وما أوقف عليه من عمائر فقد اكتملت صورته فى عهد الوزير محمد باشا سلحدار العثمانى. والمسجد كما تصفه د.سعاد ماهر يتكون من مستطيل وقد زخرف سقفه بنقوش زيتية وخطت عليه أبيات من قصيدة البردة. وفى الحائط الشرقى كتب ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [سورة التوبة آية: ١٨].

وأما اللوحة التأسيسية فقد كتب عليها كتابات نسخية نصه ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٦].

هذا مقام العارف بالله تعالى الشيخ عقبة بن عامر الجهنى رضى الله تعالى عنه، وكتب أيضا على الحائط الشرقى هذا قبر عقبة بن عامر الجهنى حامل راية الرسول ﷺ.

ويوجد على اليسار مئذنة أسطوانية تبدأ بقاعدة حجرية مربعة وتنتهى بقمة مخروطية تشبه القلم الرصاص. وفى الجنوب الغربى يوجد الضريح الذى يعلوه قبة اعتبرت أجمل وأكبر القباب التى أنشئت فى العصر العثمانى.

أما السبيل والكتاب فقد أوقفهما محمد باشا السلحدار كما أوقف أموالا أخرى. فقد كان رحمه الله مسلما صحيح الإيمان.

و«هناك مبان تابعة للمسجد من منشآت محمد باشا السلحدار وبها سبيل ذو شباكين، وهناك رحبة شمالى المسجد بها قبور مجموعة من العلماء والمشاهير، وقد ذكر على باشا مبارك قسما كبيرا من وقية تصف المسجد وأوقافه».(٣٢)

فالواقع يقول إن هذا المسجد حتى ولو لم يحظ بالكثير من معرفة الناس به فإنه مسجد ينتمى إلى الأماكن المباركة فى مصر.. أوليس داخله صحابى جليل شرفت مصر بوجوده بين أهلها لزمن؟!

❑❑❑

الورقة الثالثة

الأيام المصرية

وفى مكان ليس ببعيد عن الصحابة الصالحين يوجد ضريح العز لدين الله بن عبد السلام، وقدعاش بمصر عشرين عاما، وكان ممن يبعثون على رأس كل مائة عام فيجددون شباب أمة محمد ﷺ، ولهذا نعتبره علامة فارقة فى فقه المصريين وحياتهم.

والعز بن عبد السلام هو ابن العصر الأيوبى، حيث قدر له أن يعيش فى هذا الوقت وأن يكون جزءا من كيانه ومن المشكلات التى بدأت تطل برأسها بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى.

فبين الإخوة والأبناء ذهبت الأرض التى استطاع صلاح الدين حمايتها، ولم يكن هناك بد من اقتسامها بعد رحيل القائد الذى كتب اسمه بحروف من نور فى سجل المدافعين عن الإسلام.

فى هذا الزمن اشتد عود العز بن عبد السلام الذى أهله ذكاؤه وقدراته المتميزة على أن يتلقى العلم على يدى شيخه الفخر بن عساكر. فعرف كيف يقرأ على يديه فى أصول الفقه على المذهب الشافعى. فاعتبر الشيخ الفخر هو البداية الموفقة لمشوار طويل لم يترك فيها أى باب للعلم دون أن يطرقه.

وفى المسجد الأموى قرأ فى التفسير والفلسفة وعلم الكلام وآراء المعتزلة الذين توقف عندهم العز بن عبد السلام كثيرا ووجد فيهم نقطة نظام خاصة أثرت حياته العقلية التى قدر لها أن تستفيد من فكرة إعمال العقل ومن آراء الأشعرى بوجه عام حتى إنه وكما يذكر الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى فى مقاله «العز بن عبد السلام.. سلطان العلماء» شاعت عقيدة الأشعرى فاجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة. وكان صلاح الدين قد اعتنق المذهب الشافعى وعقيدة الأشعرى فألزم بهما الناس.

غير أن الذين جاءوا من بعده تفرقوا: «فظل بعضهم شافعيا على رأى صلاح الدين واعتنق بعضهم غير ذلك من المذاهب ولم يظلوا جميعا على رأى الأشعرى إلا قليلا».(٣٣)

وبرغم أن النشأة الأولى للعز كانت بالشام فإن لمصر حكاية معه فعندما تولى الملك الكامل حكم مصر كان رجلا ممن يحترمون العلماء بل إنه كان واحدا منهم.

فقد كان الكامل من أولى العزم الذين خلقوا للمهام الصعبة. وكان العز بالطبع يجد فيه ملاذا للعلماء خاصة إنه صدر فى عصره كتاب «التذكرة» الذى يعتبر من أهم كتب الفقه الحنفى.

وهكذا لم تكن مصر بعيدة عن عقل العز بن عبد السلام ولا عن تدبيره، بعد ما رأى من فعل غيره من المشايخ الذين يحسدونه على مكانته بعد أن أوغر صدورهم بشعبيته وبالتفاف العامة حوله. فقرروا أن يبدأوا حربهم من باب الملك الأشرف فى الشام ليغروه بالإطاحة بالشيخ.

ومـن جانبـه لم يكن الملك الأشـرف يريد أن يغضـب الملك الكامل فتجاوز عن حقد الحاقدين وعين العز بن عبد السلام فى الجامع الأموى. فكان الأمر كما وصفه الكاتب الكبير عبد الرحمن الشرقاوى كجمع لكل وسـائل النفوذ وأدواته.. فهو خطيب الجامع الأموى وأكبر المفتين وهو شـيخ الحلقة يقنع الناس بوضوح الدليل ونصاعة البرهان وقوة الحجة، ثـم هو إلى كل ذلك قاضى القضاة، فعلى رجال الدولة تنفيذ ما يقضى به وإلا أثموا شرعا واختل ميزان الأمور.

والشـيخ يجد ويجتهد فى دروس الفقه والأصول بالزاوية الغزالية فى الجامع الأموى وينشـط قضاؤه وفتاويه لاستنباط الأحكام من القرآن والسـنة وإجماع الصحابة والقياس الصحيح وتحرى مصالح الأمة التى هى مقصد الشريعة حتى لقد صح عند الشيخ الحاجب المالكى وهو واحد من أفقه علماء دمشق أن يقول:

لم نعرف منذ الأئمة الأربعة من هو أفقه من الغزالى إلا الشيخ العز عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام.(٣٤)

فحقيقة إن الشـريعة فى الأصل هدفها تحـرى مصالح الأمة إلا أن تكالـب الكثيرين على معايـش الحياة ودفاعهم المسـتميت عن حزمة المصـالح الواهنة التى حققوهـا لهو كفيل بإقناع أعـداء العدالة فى كل زمان ومكان بعدم اليأس وإلقاء أسلحة الباطل.

فمثل هؤلاء يملكون القوة السحرية لإشاعة الضلال الذى يرعى عزهم واستمرارهم. فمازال أعداء الشيخ العز يجاهدون قدرات الشيخ ولاييأسون من نسـج الشائعات المغرضة حوله، حتى بعد أن تحقق له كل هذا النجاح الذى كان لايعنى لهم شيئا أكثر من خطأ لا يمكن أن يتكرر.

فلم يكد الملك الكامل يغيب عن الساحة بعد أن توفاه الله تعالى حتى أظهر الصالح إسماعيل الوجه القبيح للشيخ العابد والذى لم يكن أكثر من إرث وفاء ما لبث أن تخلص منه ومن فكرة الوفاء نفسها بعد أن مات أخوه.

فعلى الرغم من أن هذا الصالح إسماعيل هو نفسه الذى لجأ إلى الشيخ عندما أحس أن أخاه سيعزله بسبب تصرفاته الماجنة وفتحه الأبواب للفرنجة يروحون ويجيئون بل وينهبون من البلاد كما يشاءوا فإن هذا لا يشفع للشيخ عنده.

أما مصر فقد كانت مصيبتها أكبر باستقرار ملك مثل هذا يعيش على الباطل إلا أن الأيام ما لبثت أن أنصفت المصريين عندما انقلب عليه أخوه الصالح نجم الدين أيوب.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وخاصة فى وجود الصالح إسماعيل على رأس الشام والصالح نجم الدين أيوب على رأس المحروسة مصر.

فكل منهما يتبنى سياسة لابد وأن تصطدم بسياسة الآخر، حتى لو استبعدنا حكمنا على سياسة كل منهما بميزان الحق والباطل.

ويجد العز بن عبد السلام نفسه وسط دوامة الأحداث من جديد. فهناك ما يستدعيه للجهاد. فالعز وإن عزل من كرسيه لم يكن ذلك الرجل الذى يتوقف عند هذه الأشياء الدنيوية التافهة.

فذهب فى كل مكان يفتى بعدم التعامل مع الفرنجة تعاملا من أى نوع. والأكثر من هذا أنه أفتى بأنه من باعهم السلاح فإنه آثم قلبه وإنه خرج عن طاعة الله تعالى ورسوله ولم يعد فى ملة المسلمين.

فكيف يبيع السلاح لمن يريد أن يعمله فى قلب وأحشاء الصغار والنساء والرجال والشيوخ من أهل الإسلام. ومن يفعل هذا فهو قاتل الأبرياء يمنع عنه الله تعالى رحمته ويعامل معاملة المنافقين فى صدر الإسلام.

وهكذا تحقق لكل حساد الشيخ كل ما أرادوا من خروج على طاعة السلطان وهو الأمر الذى لم يكتف به الشيخ بل جهر بعصيانه وحرض الآخرين على السلطان الآمر فى البلاد.

وهكذا أيضا تحقق للشيخ ما أراد، فالحق أحق أن يتبع ودولة الظلم ساعة ودولة الحق لا تسقط ولا تموت.

كما أنه بعصيانه للصالح إسماعيل يكون قد انتصر على نفسه، وأحيا سنة الدين الحنيف بعدم الانصياع للظالمين والمنافقين.

أما السلطان فقد تحقق له ما أراد بخروجه على أهله وتقاليد بلاده ليصبح أكثر قربا من لفرنجة الذين اعتبرت مودتهم الزائفة بالنسبة له أغلى انتصار حققه فى حياته.

وبهذا الأسلوب الواضح فى التعامل أصبح كل طرف سعيدا بما حقق، ويحسب بأنه بهذه الطريقة قد ألحق هزيمة فادحة بالطرف الآخر.

فهذا طالب الدنيا قد نالها وهذا طالب العرش وقد حصل عليه وهذا طالب لرضا الله تعالى وقد وصل اليه.

إلا أن هذه الدائرة الجهنمية لم تكد تقف عجلاتها عند هذا الحد .. فالمطلوب هو سجن الشيخ العز بن عبد السلام وصديقه الشيخ ابن الحاجب المالكى لضبط إيقاع الأسواق والمساجد والبيوت التى أصبحت كتله مشتعلة من كراهية للملك الصالح إسماعيل.

فقد أشعلها الشيخ ولم تهدأ ولم يهدأ، لأن غاية حلمه هو نزع السلطان عن الصالح إسماعيل الذى ألقى ببلاده طواعية فى أحضان الفرنج.

ويسجن الشيخان العز والمالكى ويستبين الأمر بتمام خلع الشيخ العز من كل مناصبه بشكل معلن، ولا يطول السجن فسرعان ما يغادر العز بلاده إلى ملاذه الذى كان دائما يرعاه من بعد. فإلى المحروسة مصر كانت وجهته هذه المرة بعد رحلة لم تكن باليسيرة حيث قابل الشيخ أصحاب المصالح والسلطان الذين كان من الممكن أن يردوه إلى بلاده إلا أن الشيخ قرر مواصلة السير إلى مصر برغم كل تهديد وترغيب.

وفى مصر تستقر الأحوال لزمن بالشيخ الثائر فينصرف للدرس والعلم. ويمضى وقته إما دارسا أو معلما، خاصة بعد أن اشترى له أهل مصر منزلا كبيرا له حديقة غناء تشبه إلى حد كبير الحديقة التى طالما حلمت زوجته بالعيش وسط أشجارها. ويتدارك الشيخ كثيرا من الزمن الذى ذهب سدى وهو موكول بأمر من حوله من الناس فينصرف للقراءة والكتابة ويقدم وجهة نظره مكتوبة للمصريين وللأجيال التى تأتى من بعده.

وإن كان فى الحقيقة لم يذهب وقته سدى، حيث إن دوره الاجتماعى والدينى كان يقتضى منه الالتزام بهذه المواقف السالف سردها وإلا فما قيمة درس علم لا يستفيد منه قائله.

فالتدين الحق ليس مجرد كلمات يقصد بها الالتزام بالفضيلة والصراط المستقيم، فالتدين يعنى أن نكون من هؤلاء الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وقد كان العز بن عبد السلام واحدا من هؤلاء الذى اجتمع فيهم صلاح الدين والدنيا.

وبرغم أن العز فيما يبدو قد خسر معركة فى دمشق فإنه أيضا وبهذه الصيغة تم تعيينه إماما وخطيبا لجامع عمرو الذى كان المسجد صاحب الصوت الأعلى فى عصره ليفسح له الطريق للجلوس على مقعد الإفتاء فى مصر.

وإن كان هذا يعنى أن الأمور فى مصر مؤهلة لتدور الأحداث من جديد فى اتجاه حرب وشيكة بين أهلها والفرنجة الصليبيين الذين كانوا السبب الرئيسى وراء الفتنة الكبرى التى حدثت فى بلاد الشام بل والسبب الرئيسى أيضا فى انتفاض الشيخ عن مقعده الفقهى الوثير من أجل الحق الذى لا يراد به باطل.

ويقرر الشيخ دون تردد الانضمام لصفوف المقاتلين عند علمه باقتراب جنود لويس التاسع من دمياط. ويذهب الجميع إلى المنصورة ليشهدوا انتصار الجيوش المصرية ولتتوالى بعدها الأحداث، فيموت الملك الصالح نجم الدين أيوب على إثر علة صحية وتصبح الفرصة سانحة أمام مماليكه لاعتلاء عرش مصر.

وتتوالى الأحداث ليدق التتار أبواب العالم الإسلامى هذه المرة ويثبتوا قدرتهم على اجتياح البلاد ويدقوا أبواب الشام بعد أن تسكرهم انتصاراتهم فى آسيا واجتياحهم أرض فارس وسقوط بغداد، ولاتجد مصر غير سلطانها المظفر قطز الذى يمتثل لرأى الشيخ العز فى بيع أسلاب المماليك التى حصلوا عليها فى السنوات الأخيرة نتيجة اعتلائهم صهوة السلطة فى مصر.

وتستطيع مصر برغم ظروفها الصعبة تدارك الأمر ورد الزحف المغولى عند عين جالوت إلا أن الجميع يفاجأ بوثوب الظاهر بيبرس إلى العرش بعد تخلصه من قطز عقب النصر وفى طريق عودته إلى بر مصر. ولكن هل يعنى هذا أن العبيد الذين أتى بهم السلطان لخدمته يمكن أن يصبحوا أمراء وسلاطين.

فهذه معركة أخرى للعز بن عبد السلام يصفها السيوطى «فى حسن المحاضرة» فيقول: «تصدى الشيخ عز الدين لبيع أمراء الدولة من الأتراك، وذكر إنه لم يثبت عنده أنهم أحرار وأن حكم الرق مستصحب عليهم لبيت مال المسلمين، فعظم الخطب عندهم. والشيخ مصمم لا يصح لهم بيعا ولا شراء ولا نكاحا».

وتعطلت مصالحهم لذلك، وكان من جملتهم نائب السلطنة، فاستثار غضبا، فاجتمعوا وأرسلوا إليه فقال الشيخ: نعقد لكم مجلسا وننادى عليكم بالبيع لبيت مال المسلمين، فرفعوا الأمر إلى السلطان، فبعث إليه فلم يرجع، فأرسل إليه نائب السلطنة بالملاطفة فلم يفد فيه.

فانزعج النائب وقال: كيف ينادى علينا هذا الشيخ ونحن ملوك الأرض؟! والله لأضربنه بسيفى هذا فركب بنفسه فى جماعته، وجاء إلى بيت الشيخ والسيف مسلول فى يده.

فطرق الباب، فخرج له ولد الشيخ فرأى من نائب السلطان ما رأى، وشرح لوالده الحال فما اكترث لذلك، وقال: يا ولدى. أبوك أقل من أن يقتل فى سبيل الله ثم خرج فحين وقع بصره على النائب يبست يد النائب وسقط السيف منها وارتعدت مفاصله، فبكى وسأل الشيخ أن يدعو له.

وقال: يا سيدى ,يش تعمل؟

– أنادى عليكم وأبيعكم ويحصل عتقكم بطريق شرعى.

– فيم تصرف ثمننا؟

– فى مصالح المسلمين.

– من يقبضه؟

– أنا.

انصرف نائب السلطنة إلى السلطان حيث كان جميع الأمراء قد اجتمعوا عنده، فروى لهم نائب السلطان ما كان بينه وبين الشيخ.

ولم يذعن السلطان فأرسل إلى الشيخ من يتلطف له ويحاول صرفه عن بيع الأمراء، وأخبره الرسول بعد حوار طويل أن السلطان لن يسمح ببيع الأمراء، وأمر السلطان واجب وهو فوق قضاء الشيخ عز الدين. وعلى أية حال فليس للشيخ أن يدخل فى أمور الدولة فشئون الأمراء لا تتعلق به.. فهى شأن السلطان وحده.

أنكر الشيخ تدخل السلطان فى القضاء وقام فجمع أمتعته ووضعها على حمار، ووضع أهله على حمير أخرى وساق الحمار ماشيا!

إلى أين يا شيخ؟

قال: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟

فيم المقام بأرض يستضعف فيها أهل الشريعة ويعتدى فيها على القضاء!.(٣٥)

وهكذا تسير الأحداث بالعز بن عبد السلام الذى لم يكن يهادن الأعداء ولا يحط من قدر عقيدته بائتلاف واهن مع أولى الأمر.

وهكذا أيضا نتوقف عن الحديث عند هذا الحد...فحياة الشيخ العز مثلها مثل أى شىء فى هذه الدنيا لها بداية ونهاية.

وما أسرع الأيام.. فبعدها بزمن يسير تنطفئ شمعة العمر عندما يبلغ الشيخ عامه الثالث والثمانين وهو يفسر قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة النور آية: ٣٥] ويترك كل شىء فى هذه الحياة ويخرج من مصر مسافرا إلى الله عز وجل بعد أن جلس الظاهر بيبرس على عرشها واستراح ودام الأمر له لسنوات.

وتتذكر البيوت المصرية العز بن عبد السلام الذى كان أفضل من عرف الإسلام فى زمنه ويحتضنه المقطم بجوار الإمام الليث فى قبة أقيمت فى أوائل العصر المملوكى لها قيمة معمارية خاصة إلا أن هذه القبة يصيبها الكثير من الهدم ليبقى العز بسيرته وبما قدم للإسلام.

ولكن هل ينتهى الأمر عند العز بن عبد السلام أو عند عقبة ابن عامر أو حتى عند بدر الدين الجمالى الوزير الفاطمى الذى أقام مسجد الجيوشى الشهير الذى يقف عند قمة المقطم بكتاباته الكوفية وإضافات العصر التركى.

لا أعتقد فالقصة لم تتم فصولا فهنا فى المقطم روايات وحكايات للإمام الليث وابن الفارض وجاهين الخلوتى وصلاح الدين... فما هى حكاية هذا المكان؟!

الورقة الرابعة
فى حضرة مولانا ابن الفارض

يستيقظ الصبح... وتبدأ الحياة تدب من جديد فى مصر المحروسة مع صوت آذان الفجر وظهور أول الخيوط البيضاء فى الظلام بعد فترة سكون.

فمن يعش فى سكون الليل لا يظن بأى حال أن الناس كانوا يروحون ويجيئون هنا وهناك فى هذه الأزقة وراء لقمة العيش بين النساجين والعطارين والنحاسين والوكالات وبيوت التجار منذ طلعة الصبح.

فالظلام ينبئ بأن النوم والهموم أثقلت جفون الناس فلم يبق طفل ولا شيخ ولا رجل ولا امرأة مستيقظا. فلم يبق مستيقظا إلا من تتجافى جنوبهم عن المضاجع، فيعتزلوا الدنيا فى حجرات لا يظهر فيها إلا خيالهم وهم يسجدون ويقرأون القرآن أمام شموع ضعيفة تبدو هى الأخرى وكأنها خيوط تكافح الظلام الشديد.

أيام الأيوبيين

مازلنا فى زمن السلطان صلاح الدين الأيوبى فارس العرب والإسلام الذى قد تغيرت الكثير من الأشياء بقدومه إلى بر مصر.

فقد اختفت الأحاديث فى البيوت المصرية عن أيام الفاطميين ولم يعد هناك حديث مفصل سوى عن القلعة التى تبنى على مشارف جبل المقطم بعد أن أصبح البناء فى هذا المكان ليس بجديد على المصريين، فعلى حافته يوجد مسجد الجيوشى الذى بناه بدر الدين الجمالى وزير الخليفة الفاطمى المستنصر بالله والذى استطاع فى غضون سنوات قليلة أن يعيد الرخاء إلى مصر. وكان رحمه الله من أفضل البنائين حيث إن هذا المسجد يبدو فى توافقه مع تضاريس المقطم وكأنه قطعة منه.

وفى مكان أخر ليس ببعيد يوجد مشهد إخوة يوسف عليه السلام اليسع وبنيامين وروبيل والذى أمر بإنشائه الخليفة الفاطمى الآمر بأحكام الله، ومسجد اللؤلؤة الذى كان مسجدا قديما أعاده إلى الحياة من جديد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله.

وفى مكان آخر يوجد الكثير من مشاهد الصالحين والمسلمين الأوائل مثل محمد بن أبى بكر الصديق الذى جاء إلى مصر حاكما ذات يوم. ولهذا فوجود قلعة على مشارف الجبل المبارك لم يعد بدعة.

فالمقطم يحمى القاهرة المحروسة وقد تأكد الناس من الأمر عندما رأى بعضهم بعينى رأسه ما قد كتب من أمر بإنشاء هذه القلعة الباهرة المجاورة للمحروسة القاهرة.

ولهذا فقد تعدد العارفون بجبل مصر المقطم ولم يعد غريبا أن نرى ابن الفارض سلطان العاشقين وهو يجوب وادى المستضعفين.. لنتوقف عند حكايته!

وادى المستضعفين

تبدأ القصة فى الشـام حيث الحياة الهادئة ومع هذا تقرر الأسـرة الرحيل إلى مصر بعد أن تبين لعائل الأسـرة أن هناك فرصة للاسـتقرار بمصر والتدرج بوظائف القضاء.

وقـد بـدأ الأب فى مصر فارضـا أى من يثبت فروضا للنسـاء على الرجـال وبعد نجاحه فى عمله أصبـح الطريق مفتوحا لأن يكون قاضى قضاة المحروسة وداعى الدعاة إلا إنه وكما يقول ابن إياس قد آثر العزلة والانقطاع واعتكف نه بقاعة الخطابة بصحن الجامع الأزهر.

فالأب كان صالحا وموفقا فى دينه ودنياه، ولأن النبتة الصالحة لا تبتعد عن أرضها فقد رأى الابن ما كان من الأب فأصبح هو الآخر تقيا ورعا.

فمنذ ولد ابن الفارض. أبو حفص عمر بن أبى الحسن على المرشد بن على فى عام ستة وسبعين وخمسمائة من الهجرة وكما يقول ابن خلكان وهو يعيش فى زمن يحتفى كثيرا بالعلم والدين.

فلم يكن انتقال أسرته من حماة بالشام إلى مصر المحروسة ولاتتابع سـلاطين الدولة الأيوبية إلا مسـاحة كبيرة من الزمن امتدت لما يقارب أربعة وخمسين وربما ستة وخمسين عاما من السياحة والتعبد.

فالناس فى هذ الزمن الذى كثر فيه العلماء والزهاد والصوفية كانوا يشعرون بأن الاعتصام بحبل الله والتمسك بالعروة الوثقى هو الملاذ.

فقد هزم صلاح الدين الفرنجة فى أكثر من موطن إلا أن وجودهم على أبواب الدولة الإسلامية وتهديدهم للأماكن المقدسة كان يعنى بلا شك ألا يتركوا شيئا نهبا للظروف فالعدو على الأبواب ولا يضيع من الأرض إلا ما يفرط فيه أهلها.

فهذا ما قاله علماء عصره وما يقوله علماء كل عصر. فما بالنا بما سمعه ابن الفارض من الشيخ عبد الرحيم القنائى وأبى الحسن بن الصباغ وعزالدين بن عبد السلام الذين كانوا فى الواقع ليسوا فقط مجرد علماء يقومون بعملهم فى هداية الناس وشرح ما استغلق فهمه من نصوص القرآن الكريم بل كانوا هبة من الله تعالى للمؤمنين فى ذلك العصر.

وأما وادى المستضعفين وجبل المقطم الذى كان المكان المفضل لابن الفارض فقد بدأت علاقته به مبكرا فى بداية شبابه عندما كان يتيه عشقا بهذا الجبل الذى رأى فيه الملجأ للتعبد ووجد فى واديه الغاية للمستضعفين، فكان يستأذن والده – كما يقول حفيده فى كتابه: «ديباجة الديوان» – ليعيش بين هذه السياحة ليلا ونهارا ثم يعود لوالده لأجل بره ومراعاة قلبه.

وكان والدى. والكلام لابن الفارض. يومئذ خليفة الحاكم العزيز بالقاهرة ومصر المحروسة وكان من أكابر أهل العلم والعمل فأجده مسرورا برجوعى إليه ويلزمنى بالجلوس معه فى مجالس الحكم وفى مدارس العلم، ثم أشتاق إلى التجريد فأستأذنه وأعود إلى السياحة وما برحت أفعل ذلك مرة بعد مرة إلى أن سئل والدى أن يكون قاضى القضاة فامتنع ونزل عن الحكم.(٣٦)

وتبدو إلى الآن قصة نزول الوالد عن الحكم غريبة، وكأنه هو الآخر اختـار طريق التصوف والتعبد مثـل ابنه أما لماذا فعل هذا فى أخريات عمره، فهذا شـىء يعلمه الله تعالى وحده علام الغيوب والأسرار والمطلع على كل قلب وروح خلقها.

إلا إن ما اختاره ابن الفارض لنفسـه منذ البداية جعله أكثر اقترابا من موطن الشـعر الذى كتبه ليعبر عن عشـقه الشديد للطاعة والعبادة. فيقدم ديوانا لم تعرف العربية مثله.. ويقول فى مصر:

وطنى مصر وفيهـا وطـرى ولعينى مشتهاهـا مشتهاهـا

ويقـال إن المشـتهى الثانى اسـم مكان ذكره المقريـزى بمصر ضمن متنزهـات الفاطميين وكانوا يركبون إليه يوم السـبت والثلاثاء ويقول أيضا فى شهر رمضان المعظم الذى اختصه الله تعالى بالصوم ونزول القرآن الكريم:

فـى هواكـم رمضـان عمـره ينقضى ما بيـن أحيـاء وطـى
صائبا شوقـا لصـدا طيفكـم جـد ملتـاع أى رؤيـا ورى

أما الحيـاة فهى من حملت ابن الفارض بـين طرقاتها لتجعل منه الزاهـد المتصوف، وأمـا المصادفة فهى من جعلته يقابل شـيخه البقال فيحكـى فى ديباجة الديـوان إنه حضر يوما من سـياحته فى القاهرة ودخل المدرسـة السـيوفية فوجد شـيخا بقالا على بابها يتوضأ وضوءا غير مرتب، فاعترض عليه ابـن الفارض بأن هذا الوضوء مناف لقواعد

الشـرع، وهنا نظر الشيخ إلى ابن الفارض وقال له: يا عمر أنت ما يفتح عليك فى مصر وإنما يفتح عليك بالحجاز فى مكة شـرفها الله فاقصدها فدهش ابن الفارض من هذا القول ورد على الشـيخ بأن الأمر بينه وبين مكة بعيد وإنه لايجد ركبا ولارفقة غير أشهر الحج.

الأيام الحجازية

ويذهب ابن الفارض بالفعل إلى الحجاز حيث يقضى خمسـة عشـر عاما سـائحا منقطعا كما كان يفعل فى شـبابه فى المقطم حتى يعود مرة أخـرى إلى مصر المحروسـة ليحضر وفاة أسـتاذه البقـال ويكتب فى الحجاز وأهلها:

يا أهل ودى هل لراجى وصلكـم طمع فينعـم بالـه استرواحـا
منذ غبتم عن ناظرى لـى أنـة ملأت نواحـى مصـر نواحـا
وإذا ذكرتكـم أميـل كأننـى من طيب ذكركم سقيت الراحـا
وإذا دعيت إلى تناسى عهدكـم ألفيت أحشائى بـذاك حشاشـا

وبعـودة ابن الفارض إلى مصر تنقضى السـنوات الأربع الأخيرة من عمـره ويقال إنه رأى الجنـة وعرف مكانه بهـا الا إن غرامه كان هو الورع وسياحته فى الحياة.

ويتوفى ابن الفارض فى العام الثانى والثلاثين والسـتمائة الهجرى ويدفن عند سـفح المقطم ويقام له ضريح منذ العصـر الأيوبى إلا إن هذا الضريـح وكما تؤكد د.سـعاد ماهر تتوالى عليـه الإصلاحات والتجديد

فيضيف السلطان ايدل العلائى إليه مسجدا ويوقف الأوقاف لصيانته وإطعام الفقراء ويقع المسجد بالقرب من جاهين الخلوتى.

والضريح الحالى يعود إلى عهد السلطان برقوق بينما يؤسس المسجد الحالى فى القرن الثامن عشر على أيدى أمير اللواء الشريف السلطان على بك أمير الحج، ليحمل بين جنباته حجة أهل التوحيد وحامل لواء الشعراء وأحد نبغاء الأدباء والعظماء فى زمانه والذى وصفه د.عاصم رزق فى موسوعته بأن شعره اعترف به الموافق والمخالف، ووصفه ابن حجلة بأنه أرق الدواوين شعرا وأنفسها درا وأسرعها للقلوب جرحا إذ هو صادر عن نفثة مصدور وعاشق مهجور.

فلم يضع ابن الفارض حياته كما كان يقول فى آخر أيامه، بل كان أفضل من كتب بالعربية شعرا صوفيا. فهناك أبيات شعرية متميزة قدمها شعراء الفارسية أمثال مولانا جلال الدين الرومى وحافظ الشيرازى.

فيقول مولانا جلال الدين الرومى فى «المثنوى»:

استمع إلى هذا الناى يأخذ فى الشكاية، ومن الفرقات يمضى فى الحكاية.
منذ أن كان من الغاب اقتلاعى، ضج الرجال والنساء من صوت التياعى.
ابتغى صدرا يمزقه الفراق، كى أبث آلام اشتياق.
كل من يبقى بعيدا عن أصوله لايزال يروم أيام وصاله.
نائحا صرت على كل شهود. وقرينا للشقى وللسعيد.
ظن كل امرئ أن صار رفيقى، لكنه لم يبحث من داخلى عن أسرارى.
وليس سرى ببعيد عن نواحى، لكن العين والأذن قد حرمتا هذا النور.

وليس الجسد مستورا عن الروح ولا الروح مستورة عن الجسد، لكن أحدا لم يؤذن له بمعاينة الروح.

وإن هـذا الأنين نار وليـس هواء، وكل من ليسـت لديه هذه النار ليكن هباء.

ونار العشـق هى التى نشـبت فى الناى، وغليان العشـق هو الذى سرى فى الخمر.(٣٧)

وأما عند ابن الفارض فالغرام يبقى:

إن الغرام هو الحيـاة فمت بـه صبا فحقـك أن تمـوت وتعـذرا
قل للذيـن تقدمـوا قبلـى ومـن بعدى ومن أضحى لأشجانـى يـرى
عنى خذوا وبى اقتدوا ولى اسمعوا وتحدثوا بصبابتى بيـن الـورى
ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا سر أرق مـن النسيـم إذا سـرى

وتعتقد الكاتبة ليلى الدورى فى موقع. التصوف الإسـلامى» إنه إلى الآن لاتزال أشـعار عمر بن الفارض موطن اختلاف فى تفسـيرها. فمن قرأوا ديوان شـعره من فهموا معانيه على ظاهر لفظه، وادعوا بأن حب ابن الفارض أرضى مادى وأن غزله كغزل أبى نواس وغيره.

ومنهـم من تفهمـوا معانـى غزله الحقيقيـة ووقفوا على أسـرار نفس صاحبه المتجردة ففسـروه تفسـيرا صوفيا حتى دعى ابن الفارض «سلطان العاشـقين». إلا إن حبه هو الحب الرفيع الذى يسمو على المادة وينفلت من قيودها للحاق بمبدع الجمال، وينبوع كل بهاء.

ولابـن الفارض مذهب خاص فى الحب وهو أن يستسـلم الإنسـان للحب الإلهى استسـلاما كاملا وأن يتلاشـى فيه، فإن الموت فيه حياة والتلاشى نعيم وسعادة.

فلـم تخطئ الكاتبـة حين جاءت بهذا الوصـف لتصف تلك الحالة التى تصف بها شـاعرا وصوفيا فى حجم ابن الفارض. فهو رجل ينتمى لظروف خاصة أنعم الله تعالى بها عليه ليكون ذلك الصوفى الذى يقرض الشعر فى أثناء سياحته فى ملكوت الله تعالى.

وهـو عندما كان يذهب إلى هنـا وهناك فى جبل المقطم إنما كان يعد حاسته الشعرية لهذه المهمة الصعبة التى قد لا يثبت أمامها الكثير من الشعراء. فأغلب الشـعر الصوفى قد كتبه شعراء الفارسية أمثال جامى ونظامـى والرومى وهم فى عرف مواطنيهم أنبياء الشـعر.. وإن كان لا نبى بعد محمد ﷺ.

وهناك قصائد كثيرة تذكر لابن الفارض إلا أن الكثيرين يذكرون الخمرية.

يقولون لى صفها فأنت بوصفهـا ... خبير أجل عندى بأوصافها علـم
صفاء ولا ماء ولطـف ولا هـوا ... ونور ولا نـار وروح ولا جسـم
تقدم كل الكائنـات حديثهـا ... قديما ولاشكل هناك ولا رسـم
وقامت بها الأشياء ثم لحكمـة ... بها احتجبت عن كل من لا له فهم

والتائية الكبرى تضم ٧٦٠ بيتا، وفن ابن الفارض كما تقول الكاتبة هو فن الشاعر الذى اضطرم فيه الحب اضطراما حتى أذهله أحيانا، وقد

أراد التعبير عن ذلك الحب والإفصاح عما يجول فى نفسه منه، فكان كلامه شعرا تضيق بحوره وقوافيه عن اندفاع الحب وثورته وتقصر الألفاظ عن تصوير حقيقته.

وابن الفارض لا يغفل عن الموسيقى الشعرية إلا نادرا، فهو يتغنى بشعره تغنيا وينظمه موقعا على أوتار نفسه فتتصاعد أنغام عذبة من الصور اللينة، وتألف الألفاظ والحروف وتتكرر بعضها تكرارا موسيقيا.

تشبيه بليغ.. لشخص يكتب موقعا بقلم مداده قلب صادق... فلا يدرى أن أجمل الشعر هو أكذبه.

فربما يرى ابن الفارض سلطان العاشقين والذى كان يأتيه الملوك لزيارته فى الجامع الأزهر أن أجمل الشعر هو ما يعبر عن وجدان وروح شفافة تسجد لله تعالى فى كل كلمة تكتبها.

فالشعر بالنسبة لابن الفارض الذى حظيت مصر بوجوده على أرضها صلاة خالصة لوجه الله تعالى.(٣٨)

ولاجدال فيما يمكن أن ينسب إلى قلم وعشق ابن الفارض الذى فاض مدادهما فملأ القلوب بالعشق للواحد القادر الذى لا يمكن مقارنة أى جمال أرضى بجماله، والذى رأه شاعر ومتصوف له قدره كابن الفارض بعينى الحقيقة التى لا يملكها غير العارفين وبقلب لا يفهم وقع نبضاته غير الواصلين، ولهذا فقد كان وكما وصفه الشيخ مصطفى عبد الرازق ظاهرة لامعة بين المتصوفة، بل ويعتبر الصوفى المصرى الأول بلا منازع.

الورقة الخامسة
الليث إمام أهل مصر

ﷺ عــن مصر برجود آل البيت بين أهلها... وشــرفها بوجود العلم والعلمــاء فى برها، ولكنى أتوقف هنــا لأقول لكم أبرها الله تعالى بوجود الإمام الليث عاقد الحاجبين ابن مدينة أصفهان الإيرانية الفارســى الأصل ومــولى بنى فهم عبد الرحمن بن خالد وابن قرية قلقشــندة المصرية الذى تعرفه كل شوارع الحجاز وكان أعلم الناس بخُلق الرسول محمد ﷺ.

فهذا الإمام هو نفســه صاحب المســجد الشــهير الذى يقع فى نفس الشارع المسمى باسمه فى سفح المقطم والذى كان فى الأصل مصطبة كتب عليها:

هذا مقام الإمام الفقيه الزاهد العالم الليث بن ســعد بن عبد الرحمن أبــى الحارث المصرى مفتــى أهل مصر وأزيد علَيها كلمــة فأقول وإمام أهلها... ولكن لماذا نختص الإمام الليث بكل هذا الحديث؟

حدث فى بر مصر

ولكــى نعرف قصة الإمــام الليث لابد من بداية مــن بر مصر وفى ســنوات لم يفصلها حاجــز زمنى كبير بينها وبــين فتح مصر. ونترك الإمام يحكى عن البداية فيقول:

قال لى بعض أهلى إنى ولدت سنة اثنتين وتسعين والذى أوقن إنى ولدت سنة أربع وتسعين هجرية وقد مات عمر بن عبد العزيز ولى سبع سنين ونحن من أهل أصبهان فاستوصوا بأهل أصبهان خيرا.

وفى كتاب «الليث بن سعد.. فقيه مصر» للعالم السيد أحمد خليل هناك تفسير لأصل الإمام الليث الذى حار فيه العلماء فأسلافه الأوائل كانوا من مدينة أصفهان الإيرانية وإنهم اشتركوا فى فتح مصر وإن عمرو بن العاص عندما اعتزم إنشاء مدينة الفسطاط قسمها إلى خطط خص أسلافه منها بخطة وأطلقوا عليها خطة الحمراوات الثلاث فهم ممن أسلموا وقاتلوا من أجل مصر.

ويذكر القضاعى إنهم حضروا فتح مصر واختلطوا بها وإليهم ينسب الإمام ابن سعد الفهمى وأما مولد الإمام الليث فكان فى قلقشندة إحدى قرى القليوبية التى تبعد أميالا عن الفسطاط وكانت ومازالت جزءا من ريف مصر، فكان أصله طيبا ومنبته صالحا كصلاح الأرض والفلاحين وأحاديث المساء التى تدور فى بيوت المصريين وشجرالصفصاف والكافور الذى يرمى بظله هنا وهناك.

والليث على ما يبدو لم يكن بعيدا عن الأحاديث والحكاوى المصرية وقد اختلط كل هذا التسامح والسماحة المصرية بالقامة المرتفعة فى الأصول الفارسية ليصبح الصبى الذى عرف عنه الاستقامة والتعفف والذى بدأ فى طلب المعرفة بقراءة القرآن ورواية الحديث. وهو ما لم يخف عن الناس فى بر مصر الذين أبدوا إعجابهم به وهومازال شابا.

فكما يصفه جميل بن يزيد مولى شـرحبيل بن حسنة أدركت الناس وكان الليث بن سعد حديث السن وكان بمصر عبيد الله بن جعفر وجعفر بن ربيعة والحارث بن يزيد ويزيد بن أبى حبيب وابن هبيرة وغيرهم من أهل مصر ومن قدم علينا من فقهاء المدينة وأنهم ليعرفون لليث فضله وورعه وحسن إسلامه على حداثة سنه.(٣٩)

ولايسـتمر المقام كثـيرا بمصر طلبا للعلم فيذهـب إلى الحجاز وهو لايتجاوز العشرين ليأخذ الحديث عن العديد من المشايخ والزهاد ومنهم محمد بن شهاب وأبوالزبير وعطاء بن أبى رباح وقد أخذ عنهم الكثير. فالعلم هو ما يثق به القلب... ولهذا كان من الضرورى الذهاب إلى هؤلاء العلمـاء وفى أماكنهم فيترك الليث مكة راحلا إلى العراق حيث تتملكه الرغبة الشديدة فى محاكاة العلماء ومناظرتهم.

يقول أحد العلماء وهو عبد العزيز بن محمد: رأيت الليث بن سعد عند ربيعة يناظرهم فى المسائل وقد فاق أهل الحلقة.

ويصل الليث إلى ما يرغب وتصل شهرته إلى الخليفة هارون الرشيد وقـد وقع خلاف بينه وبين زوجته زبيدة قال هارون: أنت طالق إن لم أكن من أهل الجنة ثم ندم.

فجمع الفقهاء فاختلفوا ثم كتب إلى البلدان فاسـتحضر علماءها إليه فلما اجتمعوا جلس لهم فسـألهم فاختلفوا وبقى شيخ لم يتكلم وكان فى آخر المجلس وهو الليث بن سـعد قال: فسـأله، قـال: إذا خلى أمير المؤمنين مجلسه كلمته. فصرفهم: فقال يدنينى أمير المؤمنين.

فأدناه فقال: أتكلم على الأمان؟ قال: نعم. فأمر بإحضار مصحف فأحضر فقال: تصفحه يا أمير المؤمنين حتى تصل إلى سورة الرحمن فاقرأها ففعل فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [سورة الرحمن آية: ٤٦].

قال أمسك يا أمير المؤمنين قل والله قال: فاشتد ذلك على هارون فقال: يا أمير المؤمنين الشرط أملك.

فقال: والله حتى فرغ اليمين قال: قل إنى أخاف مقام ربى، فقال ذلك، فقال يا أمير المؤمنين فهى جنتان وليست بجنة واحدة قال: فسمعنا التصفيق والفرح من وراء الستر فقال له الرشيد: أحسنت وأمر له بالجوائز والخلع وأمر له بإقطاع الجيزة ولا يتصرف أحد بمصر إلا بأمره وصرفه مكرما.(٤٠)

وهذه الفتوى ليست الوحيدة التى يمكن أن تمنحنا صورة من قريب لواقع الإمام الليث الاجتماعى وفهمه للحياة من حوله. فمما يقال عنه إنه كان أكثر من أفتى فى شئون أهل الكتاب. وقد عرفت مصر منذ بداية دخول الإسلام وجود أهل الذمة الذين يعيشون فى كنف الدولة الإسلامية فكان لليث فتواه فى المعاملات والعقود والزواج والذبائح وإقامة ما هدم من الكنائس.

وهو ما يعنى أن شخصية الليث كانت تحمل مبدأ الفهم واستيعاب ما يحدث فى مصر. فلم يكن ممن يصدرون فتواهم فى مجالس العلماء من وراء الحجرات بل كان يعيش الحياة مع أهله فى مصر ويفهم كل ما يحدث حوله كواحد من أبناء هذا البلد.

فقد كان مسلما وسطيا حنيفا يخاف على مصر والمصريين وكان أكثر ما يريبه أن يقعوا فى فخ الأسطورة والخرافات التى يعشقونها والتى يمكن أن تختلط بالعلم فتفسده.

وقد كان فى تحايله على أحد رواة الأسطورة مثالا على هذا فعندما استمع إلى أحد الذين يقصون على الناس القصص فى المسجد وقد اختلط بالحديث الأساطير، أشار على الحاكى أن يلتزم الصدق ورجاحة العقل، فلا يبتذل نفسه فى ذكر الأوهام وخلطها بالحقيقة ومنحها مظهرا يتفق مع الإسلام.

وأرسل إليه فى مقابل وفائه بالوعد ألف دينار واحتجزه عنده لضيافته حتى لا يترك له الفرصة فى التمادى الذى يجعل الآخرين بكشفه هذه الأسرار والحكايات يعتبرونه وليا من أولياء الله الصالحين وكأنه سيدنا الخضر عليه السلام.

باختصار كان الليث يفهم الإحساس بالعقيدة الإسلامية عند المصريين ولهذا وضع أساس فتاوى مصرية خالصة وناقش الكثير من المسائل التى لم تناقش بمثل هذه الجرأة من قبل كمسائل المهر والرضاعة والقصر فى الصلاة ورؤية هلال رمضان وزكاة الزيتون.

وهكذا يبدو لليث فضائله إلا إن أكثر ما استوقف المؤرخين والفقهاء إلى جانب فتواه الراجحة هو كرمه الشديد وتفضله بعطاء الله.

فكان مما ذكر لترمذى إن الليث كان يتصدق فى كل صلاة على ثلاثمائة مسكين وإنه لم يكن يرد سائلا وكان يطعم الناس الهرائس بعسل النحل فى الشتاء وفى الصيف بشىء من اللوز والسكر.

ويقول قتيبة بن سعيد قفلنا مع الليث من الإسكندرية ومعه ثلاث سفائن، سفينة فيها مطبخه، وسفينة فيها عياله، وسفينة فيها أضيافه وقال أبو حاتم بن حبان: كان الليث لا يتردد إليه أحد إلا أدخله فى جملة عياله.

وقال أشهب بن عبد العزيز: كان لليث أربعة مجالس كل يوم: مجلس لحوائج السلطان، ومجلس لأصحاب الحديث، ومجلس لأصحاب المسائل، ومجلس لحوائج الناس لا يسأله أحد فيرده صغرت حاجته أو كبرت.(٤١).

❑❑❑

مالك والشافعى

ويذكر فى كثير من الكتب أن الليث كان معاصرا لمالك حتى إن البعض قد عقد بالفعل صلة بينهما فيقول سعيد بن أيوب: لو أن مالكا والليث اجتمعا لكان مالك عند الليث أبكم ولباع الليث مالكا فيمن يريد.

بينما يقول ابن وهب قولا أكثر منطقية وتخفيفا من السخرية: لولا مالك بن أنس والليث بن سعد ما كنت أظن أن كل ما جاء فى النبى ﷺ يعمل به.

ويقول أبو صالح كاتب الليث: كنا على باب مالك بن أنس فامتنع علينا (أى احتجب) فقلنا: ليس يشبه هذا صاحبنا قال: فسمع مالك كلامنا فأمر بإدخالنا عليه فقال لنا: من صاحبكم؟ قلنا: الليث بن سعد. قال: تشبهوننى برجل كتبت إليه فى قليل عصفر نصبغ به ثياب صبياننا فأنفذ إلينا منه ما صبغنا به ثياب صبياننا وثياب جيراننا وبعنا الفضل بألف دينار.(٤٢)

وتظهر كتب التاريخ أن الليث بثرائه ومروءته يصل مالك بمائة دينار فى كل سنة حتى لا تأخذه حوائج الحياة بعيدا عن العمل فى فقه الحديث والسنة.

فما أراده الليث هو تيسير الطريق لمالك وكأنه يدفع الأذى عن طريق مسلم عالم حيث إن الظروف كانت تضطر مالك إلى الاستدانة وكان الليث يسانده فى كل أموره المادية والحياتية حتى يقال إنه أرسل ثلاثين جملا لمالك عندما تزوجت ابنته.

وأما الشـافعي فقد مهد الليث طريقه. وعند وصول الشافعي إلى مصر تعـرف إلى فقه الليث وجعله في كتابه الأخير: «الأم» الذى خطه بمصر قبل وفاته. ويضم مجمل فكره وأفضل ما كتب الشـافعي في حياته حتى إنه قد وقف يوما على ضريح الإمام الليث قال: لله درك يا إمام لقد حزت أربع خصال لم يكملهن عالم: العلم والعمل والزهد والكرم.

فالليث لم يكن ليتعصب حتى إن الناس قد فشلوا في أن يأخذوا عليه تعصبـا فقرأ بقراءة أهل المدينة وإن كان قد تلقى القراءة على نافع الذى يلتقى معه في الأصل الفارسـي والانتماء لمدينـة أصفهان حتى لا يقال إنه يتعصب لبنى جنسـه فالمسلمون سواسـية، ولهذا وبسبب طبيعته السمحة كان الشافعي يقول إن الليث أفقه من مالك.

وفى الختام

ويأتى يوم الجمعة في النصف الثانى من شـعبان عام ٦٦٦هـ ليكون الليث قد زاد عن الثمانين عاما لتشـهد مصر وفاته وجنازته والتى كما جـاء في «الدر المنظم في زيـارة الجبل المقطم» لم يكن هناك ما هو أعظم منها ولا أكثر خلقا.

فقد وقف الناس وعليهم الكآبة والحزن يعزون بعضهم البعض ويبكون. فقد كان عالما كريما، غزير العقل وحسن الفعل لا يرى مثله أبدا وكان كل جزء من بر مصر يعرفه وقد بكاه خط الحمراء ومكان صلاته وسفينته التى كانت تقله وأهله وخدمه من رشيد والإسكندرية إلى الفسطاط.

وتقول د/ سعاد ماهر إن أبا زيد المصرى وهو أحد كبار تجار مصر بنى على القبر حتى إذا ما جاء زمن المماليك جددت القبة فى عصر السلطان الأشرف شعبان بن قلاوون وجدد الضريح فى آخر أيام الناصر فرج بن برقوق وكتب على القبة... هذا مقام السيد الإمام الليث بن سعد نفعنا الله به آمين.

وتأتى امرأة دمشقية اسمها مرحبا بنت إبراهيم فى زمن السلطان المؤيد شيخ لتجدد المسجد وتقيم مئذنة للجامع.

ويقرر من بعدها الأمير يشبك بن مهدى وهو أحد أمراء الأشرف قايتباى - وله فتوحات كبيرة فى مجال العمارة الإسلامية ومنها القبة الفدوية الشهيرة - إنشاء مئذنة فى الطرف الجنوبى الغربى.

ويستكمل سيد البنائين السلطان الغورى الذى تشهد له آثار الغورية كلها تجديد المسجد فى عام ١٥٠٥م وإضافة إيوان وباب كتب عليه بالنسخ المملوكى: «أمر بإنشاء هذا الباب الشريف من فضل الله تعالى سيدنا ومولانا ومالك رقابنا السلطان المالك الأشرف قنصوه الغورى عز نصره، وكان الفراغ من إنشاء هذا المكان فى مستهل رجب الفرد من سنة إحدى عشرة وتسعمائة».

ويجددهما فيما بعد الأمير موسى جوريجى ميرزا مستحفظان الذى يجدد المقصورة أيضا إلى جانب المسجد والقبة حتى نصل إلى عصر إسماعيل بك راتب فى زمن الأسرة العلوية الذى يجدد المسجد تجديدا شاملا ومهما فى السبعينيات من القرن التاسع عشر.

وأما زمننا الحالى فقد شـهدت فيه وبشـكل شخصى تجديدا كبيرا لهذا المسـجد المنسـى والذى قـد كان أهل الحى يتبركـون به فيدفنون موتاهـم إلى جانب قبر الإمـام الليث وهو الأمر الـذى قد عرض المكان للكثير من الإهمال.

وأما عمارة المسجد فتضم قبتين أولاهما للإمام الليث عبارة عن حجرة مربعة بها محرابان حجريان محمولة على أربعة أعمدة رخامية لعلها الوحيـدة الباقية من عمارة أبى يزيـد المصرى وتحتها تركيبة رخامية حولها مقصورة خشـبية مطعمة بالصدف ترجع إلى عمارة الأمير موسى جوريجى والأخرى صغـيرة تضم محمد بن هارون الصوفى خادم الإمام وقبر شعيب ابنه.

و يتوقـف عنـد ما يحفل به الأثـر بالكثير من الكتابـات العربية المنتشرة بين أجزائه ومنها أعلى المدخل بعد البسملة(٤٣).

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [سورة الأحزاب آية: ٢٣].

هذا مقام سـيدنا ومولانا الإمام الليث بن سعد متعنا الله تعالى ببركته، وجزء على المقصورة من قصيدة البردة:

أمن تذكر جيـران بـذى سلـم مزجت دمعا جرى من مقلة بـدم
أم هبت الريح من تلقـاء كاظمـة وأومض البرق فى الظلماء من إضـم
فما لعينيك إن قلت اكففـا همتـا وما لقلبك إن قلت استفـق يهـم
أيحسب الصب أن الحـب منكتـم ما بين منسجـم منـه ومضطـرم

لولا الهوى لم ترق دمعا على طلل ... ولا أرقت لذكر البان والعلم
فكيف تنكر حبا بعد ما شهدت ... به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجد خطى عبرة وضنى ... مثل البهار على خديك والعنم
نعم سرى طيف من أهوى فأرقنى ... والحب يعترض اللذات بالألم
يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة ... منى إليك ولو أنصفت لم تلم
عدتك حالى لا سرى بمستتر ... عن الوشاة ولادائى بمنحسم
محضتنى النصح لكن لست أسمعه ... إن المحب عن العذال فى صمم
إنى اتهمت نصيح الشيب فى عذل ... والشيب أبعد فى نصح عن التهم
(٤٤).

أما مقصورة الضريح فإن واجهاتها الأربع تشتمل نصها بعد البسملة: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٥] إلى قوله عز وجل ﴿ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [سورة البقرة آية: ٢٥٧].

وأما القبة فقد كتب عليها: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ [سورة الفتح آية: ١]. إلى قوله عز وجل ﴿ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ [سورة الفتح آية: ٣]. صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم ﷺ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

ولاغرابة فى أن يضم مسجد الإمام الليث كل هذه النصوص ..فهذه عادة المعماريين فى بر مصر عندما يبنون ضريحا لولى من أولياء الله الصالحين. فمابالنا بالإمام الليث إمام أهل مصر الذى أهمل معاصروه من تلاميذه تدوين الكثير من فتاويه المصرية فلم يوفوه حقه.

فالحقيقة إنه فى مصر تولد كل يوم معجزة جديدة فى الفقه والمعمار والهندسة والأدب والعلم فيضن عليهم الناس بالتذكر.

وهـو فـى النهاية خطأ فادح لابد من تداركـه حيث إنه فى الكثير مـن الأحيان يذهب أنـاس يمثلون تجارب كبرى وتضيـع علينا فرصة الاحتفاظ بتراثهم كم هو الحال مع الإمام الليث.

وأما أبيات بردة البوصيرى التى كتبها المصريون على المقصورة فهى اختيـار ذكى واعتذار منهم عن عدم مراعاتهم لحق هذا الشـيخ الجليل فاختاروا أبياتا غزلية من بردة الإمام البوصيرى المباركة.

ففـى البداية يتسـاءل الإمام البوصيرى فى بردته الشـهيرة. وكما جاء فى شرح بردة المديح المباركة للإمام شرف الدين أبى عبد الله محمد البوصيرى لأسامة أبو خليل. عن سبب هذا الحال الذى عليه المحب من البكاء الشـديد الذى أجهد العين وكأن الدمع يختلط بالدم.. فهل حدث ذلك حينما تذكر جيرته فى المدينة المنورة من شدة الشوق.

فربمـا كانت الريح التـى جاءت من ناحية المدينـة المنورة هى من حرك هذه الأشواق أو لعله البرق الذى لمع والمسمى أضم.

فإذا لم يكن الشوق هو السبب فلماذا لا تكف العين عن الدمع. أكلما يحاول القلب أن يسـتعيد توازنـه زاد جنونه. فالحب حقيقة لا يمكن إخفاؤها أو الاستهتار بها وسيعلن الدمع عنه دائما.

ويكشـف البوصيرى عن مقصد الحب فى أبياته وهو سـيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وأما البان والعلم فهما موضعان بالقرب من مكة المكرمة.

فالحـــب لا يمكن إنـــكار إنه هوالدليل على وجود هـــذا البكاء الذى يبدو وكأنـــه بالفعل اختلط بالدم. فمن يزره خيال حبيبه يجافيه النوم ولا يســـتطيع الانتظار. فالحب شـــىء قهرى، فما بالنا بالحب المجرد لشخص الرسول الأكرم.

فـــإذا ذاعت حكايات الحـــب أصبحت مادة لهـــؤلاء الذين يتتبعون أخبار الآخرين والذين لا يعرفون حقيقة حال المحب.

فهذا المحب لا يســـتمع لنصائـــح الآخرين ولا يكترث بمن يلومونه فالمحـــب لا يرى فـــى الآخرين الإخـــلاص حتى ولـــو كان الناصح ذلك المشيب الذى عركته خبرات الحياة.

❑❑❑

الورقة السادسة

بئر يوسف

فى عمارة مصر وأثارها تكثر الروايات حول بئر يوسف الموجودة قبالة جامع الناصر محمد بالقلعة. وهذه البئر كانت تزورها النساء بل والرجال طلبا للبركة لأنهم كانوا يعتقدون أنها بئر سيدنا يوسف عليه السلام التى ألقى فيها فالتقطه أحد السيارة كما جاء فى سورة يوسف بالقرآن الكريم.

ولا أعرف لماذا يعتقد الناس أن هذه البئر هى نفسها البئر المذكورة. فالموجودة بالقلعة أنشأها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب «صلاح الدين الأيوبى». وترجع الكتب حقيقة حفرها وتشييدها إلى وزيره الشهير بهاء الدين قراقوش الذى كثيرا ما تندر به المصريون وما زالوا عندما يذكر الحكم المستبد فيضرب بحكم قراقوش مثلا.

والبئر فى حقيقتها نحت فى الصخر لخزن المياه اللازمة لجميع مرافق القلعة كما تشير موسوعة الآثار الإسلامية والقبطية وهى تتكون من ثلاث طبقات يلتف حولها سلم حجرى حلزونى يضيق فى الطبقة الوسطى التى عملت فيها ساقية خشبية كانت تستخدم لرفع الماء. ويوجد بجوار كل طبقة من الطبقات عدة فتحات للتهوية والإنارة.

والحقيقــة التى تذكرها كتــب التاريخ أن مياه النيــل كانت تصل إلى القلعة فى قناة يحملها سور صلاح الدين من الفسطاط إلى القلعة. فقد كان من المفترض أن يكون أكبر اعتماد على مياه البئر فى أوقات الشدة والحروب.

ويقــول المقريزى: هذه البئر من العجائب اســتنبطها قراقوش، وهذه البئــر مــن عجائب الأبنية تدور البقر فى أعلاهــا فتنقل الماء من نقالة فى وســطها وتدور أبقار فى وســطها تنقل الماء من أسفلها. ولها طريق إلى الماء ينزل البقر إلى معينها فى مجاز وجميع ذلك فى حجر منحوت.(٤٥)

وبنظــرة إلى عمارة القلعة نجد أنها من أهم أثار العصر الأيوبى الذى لم يصل عمرها إلى أعوامه المائة. فقد كانت الدولة الأيوبية من أقصر الدول عمــرا فى بر مصر. إلا إنها مع هذا تعتبر دولة صاحبة بصمة كبيرة على حياة المصريين بل ويمكن اعتبارها بلا تردد علامة بارزة فى تاريخ مصر.

فعندما جاء صــلاح الدين إلى مصر تغيرت أحوال البلاد. فقد كان من الضرورى للبطل أن يكون بالفعل فارســا مــن الطراز الأول قبل أن يدخل حلبة الجهاد. وكانت مصر هى المكان فتغيرت من أجله وتغير من أجلها.

فبشــهادة التاريخ لم تكن المقدمات تنبئ بقدرة صلاح الدين للوصول إلى هذه المكانة المتميزة تاريخيا ولم تتوقع له أن يحقق كل هذه الأمجاد فهو ينتمى فى الأصل إلى أســرة حاكمة قيــل إن لها أصولا كردية وقيل أيضا إنها فــى الأصل تنحدر من قرية دوين فى أذربيجان. وقد انتقلت الأســرة إلى العراق حيث نزلت بتكريت ثم بغداد ثم دمشــق حيث نشأ صلاح الدين.

ويأتـى صـلاح الدين إلى مصر فى معية عمه أسـد الدين شـيركوه الذى يسـتنصره الوزير شـاور فى حربه مع الوزير ضرغام الذى كان قد استعان بالصليبيين. ويستتب الأمر لشيركوه ويرى الخليفة العاضد بالله الحديث السـن أن شـيركوه هو الرجل المناسـب للوزارة. ويصبح شـيركوه هو الوزير المناسـب فى الوقت المناسـب، ولكنه يموت بعد فترة أقصر من أن تعد.

فيقـرر الخليفـة العاضد بالله وإكراما لهذه العائلـة أن يصدر قرارا بتوزير صلاح الدين، ويسـتقر الوضع بشـكل أفضل للناصر صلاح الدين بعد أن يفقـد الصليبيون الكثير من قوتهم بعد مـوت الملك أمورى ملك بيت المقدس ويعتبر وجوده فى مصر فألا حسنا لكل المصريين.

ويموت الخليفة العاضد بالله الذى كان فى حقيقة الأمر آخرالخلفاء الفاطميين ليملك صلاح الدين الأيوبى مصر والشـام والحجاز واليمن، ولا يقتتـل الناس من أجل بقاء الدولـة الفاطمية التى كانت قد لفظت أنفاسها فى صمت، وكأن الزمن قد أعلن وفاتها بعد أن عدمت فرسانها. فلم يبق من سـيرتها فى مصر المحروسـة سـوى العديد من المساجد وأضرحة آل البيت.

فقـد تتناول كتب التاريخ الأحوال فى بر مصر ولا تتوقف كثيرا أمام شـعور المصريين تجاه هذا القائد الفذ الذى وضعتـه الأقدار فى طريقهم خاصـة إنـه كان عليـه تنظيم الداخل والخـارج فى مواجهة السـرطان الصليبى الذى كان قد استشرى فى آخر سنوات الفاطميين فى مصر.

وينذر صلاح الدين حياته لهذا الهدف. ويثبت للجميع حنكته كقائد من خلال سلسلة من المعارك الحربية التى تصيب أعداءه بالذهول. فمنذ زمن ليس بالقصير نسى الشرقيون هذه الروح القتالية الجماعية وجاء صلاح الدين ليجمع الناس من حوله وليتقدم بخطى ثابتة نحو تحرير الأرض العربية من أيدى سالبيها.

وتتتابع السنوات وصلاح الدين الأيوبى يعمل فى مشروعه الخاص الذى كان فى الأصل مشروعا وحدويا يقصد به جمع كلمة العرب والمسلمين لمحاربة الصليبيين. فقد فهم صلاح الدين أنه لا أمل فى الانتصار إذا كان المسلمون برغم كثرة عددهم واتساع رقعة بلادهم لا يجتمعون على كلمة واحدة.

فمشكلة الحروب الصليبية سوف تتكرر فى العالم الإسلامى إذا أصر الحكام على الانطواء والتقهقر إلى الداخل، كما أن الخطر سيكون أكبر إذا ما أصروا على الاختلاف لتتحمل أوطانهم أوزارهم وتجد نفسها وحيدة فى مواجهة الأخطار.

ربما يظن من يقرأ أن كل هذه الأشياء تبدو من البدهيات التى لا تحتاج تعلم أو توقف عندها إلا أن كرسى الحكم فيما يبدو يمثل نقطة تحول وإغواء من نوع خاص عند من يجلس عليه حتى إن الكثير من أصحاب النفوس الضعيفة ينسون مثل هذه البدهيات فمجاهدة النفس حرب كبيرة لا يعرفها إلا الواصلون والسالكون لطرق الخير.

فـإذا ما صلح أمـر الحاكم أصلح الله تعالى له بطانته وأرسـل إليه خيرة البشـر يسـاعدونه. وقد تحقق لصلاح الديـن الأيوبى كل هذا عندما أرسـل إليـه رجلين من خـيرة الرجال وهمـا القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى اللذان أعطيـاه خبرة تجربتهما فى الحياة والتى كانت كفيلة برفع أسهمه.

فقد يحدث أن تلتقى فى كتب التاريخ بصانعى النجوم والشخصيات العظيمة الذين يظلون دائما على هامش سـيرة النجم أو الشخص العظيم وقد كان هذان الرجلان مثلا حيا لهذه الحقيقة.

والغريب فى قصة صلاح الدين ليس فقط شـخصيتى القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى اللذين يعتبران الجنديين المجهولين فى مسيرته.. وإن كان الرجلان حجة لنجاح الناصر صلاح الدين

والقاضـى الفاضل هو ابن مدينة عسـقلان حيث ولد ثم ذهب بعدها إلى الإسـكندرية ثم القاهرة فى أواخر زمن الدولة الفاطمية ليعمل كاتبا فى ديوان الظاهر بالقاهرة. فلم يعمل بالقضاء كوالده وجده اللذين كانت نزاهتهما مضرب الأمثال.

فقـد قرر القاضـى الفاضل عدم اختيار هذا الطريـق بعد أن وجد أن الكتابة هى أفضل الطرق ويلتقى بالناصر صلاح الدين فينبهر برسـالته ويكتب من أجله الكثير من الخطب الحماسـية والرسـائل التى تؤلف قلوب الناس من حوله.

وتتطور علاقتهما فيصبح المستشـار الأول لصلاح الدين والشخصية الأقرب خلف السـتار الذى ينفعـه بالكثير من النصائح التى يعمل بها صلاح الدين فيعترف لفرسانه بأنهم فى حقيقة الأمر لا يفتحون البلاد بسيوفهم بل بقلم القاضى الفاضل.

ويصفه العماد الأصفهانـى بأنه رب القلم والبيان وصاحب البصيرة النفـاذة والبديهة المعجزة. وقد عـاش لزمن بعد موت صلاح الدين وفيا لمبادئه حتى وافته المنية فى عام ٥٩٦هـ، ودفن إلى جوار الصالحين بجبل المقطم.

أما العماد الأصفهانى فهو الشـخصية الأخـرى صاحبة التأثير فى زمن صلاح الدين الأيوبى، ولد فى مدينة أصفهان الإيرانية ثم انتقل إلى بغداد حيث تلقى تعليما جيدا فى المدرسـة النظامية وهو ما فتح أمامه الطريق للترقى حتى أصبح نائبا للوزير ابن هبيرة.

وبرغم أنه كان يعيش فى دمشـق وفى معيـة نور الدين زنكى فإنه لا يلتقى بصلاح الدين الأيوبى إلا بعد أن عرفه عليه القاضى الفاضل.

ويعين صلاح الدين العماد الأصفهانى نائبا للقاضى الفاضل ويمتد نفوذه إلى نصح صلاح الدين الأيوبى بما يراه فى مصلحة الأمة لتنتهى حياته هو الآخر بعـد موت صلاح الدين الأيوبى بعدة سـنوات يتفرغ خلالها لعمله الأدبى والتصنيف فيتوفى عام ١٢٠١م، ويحسـب لصلاح الدين أنه بالفعل نجح فى أن يطير فوق الأزمات بجناحى القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى فيحقق ما لم يحققه غيره من قادة المسلمين فى زمنه.

أما القصة الأخرى فهى حطين التى اعتبرت معركة فاصلة فى التاريخ العسكرى الإسلامى. فعلى الرغم من أن الكثير من المعارك قد خاضها صلاح الدين فإن وجود قوات صليبية بهذا الحجم المؤثر ووجود قادة أوربيين محنكين من أمثال ريتشارد قلب الأسد الذى كان هو الآخر أسطورة يذكرها الإنجليز إلى الآن كان يمكن ألا ينهى هذه المعركة لتستمر إلى ما لا نهاية.

فقد جاء ريتشارد إلى الشرق بعقلية المحارب، وأراد أن يثبت لنفسه أن ما يقاتل من أجله هو حقيقة وضرورة دينية. واستمر يرعى هذا المنطق ويتبناه حتى قتل فى إحدى المعارك فى أسبانيا.

وبعد سنوات من التصدى والمقاومة ترجح كفة صلاح الدين الذى لم يكن صلح الرملة الذى عقده مع الأوربيين إلا تحقيقا لأمله فى الخروج من المأزق الذى فرض نفسه على أراضى العرب والمسلمين.

فمن المفيد أن نقرأ قصة حياة صلاح الدين الأيوبى كاملة وأن نبحث عن كتب تتناول هذه الفترة المبهرة من تاريخ الإسلام والمسلمين، فى وقت كانت الأمة تستعد للنهوض على قدميها من جديد بعد أن أصاب النخر بعض عظامها وهو الأمر الذى لم تستسلم له أبدا بفضل رجال صدقوا ما عاهدوا الله تعالى عليه.

إلا إننا نضطر فى النهاية أن نتوقف عند نهاية القصة عندما ذهب صلاح الدين وهو فى الخمسينيات من عمره ليودع مجموعة حجاج ذهبوا لأداء مناسك الحج وهو أمر لم يكن باليسير عليه وخاصة بعد أن نصحه

مستشـــاروه بعدم السفر للأراضى الحجازية لان هذا يمكن وبسهولة أن يعرضه لهجوم الفرنجة وأسرهم له فى أبسط تقدير.

وبرغم أنه مشهد متكرر إلا أن كل من رأى صلاح الدين يومها حكوا بأنـــه ذرف الدمع كما لم يحـــدث فى أى موقف فى حياتـــه وأنه اهتز عاطفيا لهـــذا المنع المفروض عليه ...أما ما حدث بعدها فلم يصدقه أحد فبعدهـــا بأيام قليلة رحل الفارس عن الحياة وترجل عن فرســـه بعد أن أدى مهمته فى هذه الحياة بنجاح مبهر.

وقد رحل فارس الفرســـان ولم يحقق أمنيتـــه الأقرب إلى قلبه وهى حج البيت لأنه لم يستطع إليه سبيلا... ولهذا نسألكم الفاتحة والدعاء لهذا الفارس.

ولكن ما الرابط بين بئر يوسف التى تنسب إلى صلاح الدين الأيوبى وقصة ســيدنا يوســف عليه السلام. هذا ما لا أعرفه وأتمنى أن أجد الإجابة إذا كان يعرفها أحد.

❑❑❑

الورقة السابعة
خلوة جاهين

أما صاحب هذا المسجد الغريب والجميل فى الوقت ذاته الذى يبدو على رأس جبل المقطم أمام مقام مولانا عمر بن الفارض سلطان العاشقين وإمام الصوفية فهو جاهين الخلوتى.

وقد يتعجب أى إنسان لهذا المسجد والقبة المعلقة، ويتساءل بينه وبين نفسه عن سبب وجودها فى هذا المكان وهل هى منحوتة فى الصخر أم أنها مجرد بناء له شكل خادع.

وقبل أن يأخذنا خيالنا بعيدا نقرأ ما جاء عن هذه الخلوة التى تخص جمال الدين عبد الله نجل العارف بالله الشيخ جاهين بن عبد الله الخلوتى.

والغريب أن هذا العارف بالله تنتمى أصوله إلى بلد آخر، فهو ابن مدينة تبريز الإيرانية وقد قدم إلى مصر مملوكا فى عهد السلطان الأشرف قايتباى. وإن لم تستهوه حياة الجندية فلم يحلم بالترقى فى القصور المملوكية فكانت عزلته بعيدا عن القيل والقال وحفظه للقرآن الكريم ومصاحبة العلماء هو كل ما يرغب فى هذه الحياة.

فما كان من السلطان الأشرف قايتباى إلا أن أعتقه، وهو المملوك القريب إلى نفسه ليعود مرة أخرى إلى تبريز ليتتلمذ على يدى العارف

بالله الشيخ عمر التبريزى ثم يعود إلى مصر طلبا لصحبة الشيخ محمد الدمرداش الذى كان من عمق ارتباطه به يسميه الناس باسمه حتى ترك كل شىء وذهب إلى جبل الأولياء ليحفر لنفسه وبنفسه قبرا.

ويقام بعد وفاته هذا المسجد الذى لم يبق منه غير واجهة حجرية واحدة وباب يعلوه قوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [سورة التوبة آية: ١٨].

ويقول الرحالة النابلسى كما جاء فى «الخطط التوفيقية» لعلى باشا مبارك: دخلنا مزاره ورأينا مقامه فى ذلك الجامع يطل على مزارات القرافة المباركة وفيه منبر ومحراب لإقامة صلاة الجمعة.

وهناك ثلاثة قبور القبر الكبير قبر الشيخ جاهين وبجانبه قبر ولده الشيخ جمال الدين ثم قبر ولده الشيخ محمد جاهين فوقفنا هناك وقرأنا الفاتحة ودعونا الله تعالى.

وتتعرض موسوعة «آثار القاهرة الإسلامية فى العصر العثمانى» لتفاصيل كثيرة لهذا المسجد الذى لم يتبق منه سوى واجهته كشاهد على خلوة هذا الصوفى الجليل.

فقد كان المكان فى الأصل منشأة كبيرة تشبه الضاحية المعلقة بالجبل. وكانت كل تفاصيل الحياة اليومية كاملة بها فيوجد خزانات للمياه ومساكن ومرافق كاملة المنافع وهو ما يعنى فكرة الاكتفاء الذاتى.

ولاعجب فـى انتقال الحياة إلى هذا المـكان، فنحن فى النهاية فى جبل المقطم المبارك الذى اعتبر مكانا للعبادة والاختلاء بالذات منذ أيام الإسلام الأولى فى مصر.

«فالساحة الهائلة» فيما بين مدينة الفسطاط غربا وجبل المقطم شرقا مسـرح واسع للمنشـآت الدينية والجنائزية والترويحية، حيث كانت القرافـة الكبرى تحتل هذه المسـاحة، وتتصل بجبـل المقطم الذى كان محلا معتبرا ذا قدسـية وخاصة المواضع التى بسفح المقطم فإنها عمرت بالمنشـآت الدينيـة المهمة، كما ضمت أراضى هذه البقاع أجسـاد أعداد كبيرة من مشـاهير الصحابة والعلماء والأولياء على مر العصور بل دفن فيها أيضا عدد كبير من الأمراء وبعض السلاطين.

ونذكـر ممن دفن فيها على سـبيل المثال الصحابى الجليل سـيدى عقبـة بن عامر الجهنى والى مصر، والصحابى عمرو بن العاص والإمام الشـافعى وأحمد بن طولون وطغج الإخشيدى والليث بن سعد والقاضى بـكار بـن قتيبة وابـن حجر العسـقلانى وذا النون المصـرى وعمر بن الفـارض والفضل بن الفضيل وعز الدين بن عبد السـلام والمظفر قطز ثم أخيرا إبراهيم باشا فى القرن التاسع عشر الميلادى.

ومازالـت تلك البقعة مدفنـا لكثير من الأمـراء والخاصة والعامة إلى وقتنا هـذا. أما الموقع الخاص بجامع جاهـين الخلوتى فله أهميته الخاصة إذ توجـد حول هذا الجامع مواضع تاريخية مهمة منها جامع محمود الشهير ومشهد اليسع وروبيل إخوة يوسف عليه السلام.

ومنهـا العارض وهى مغـارة فى الجبل عمرت بأمـر الحاكم بأمر الله وأنشـئت فيها مئذنة، يقول المقريزى: وهى باقية إلى اليوم وتحت العارض قبر الشيخ العارف عمر بن الفارض رحمه الله وقد قال القائل: وقل السلام عليك يا ابن الفارض.(٤٦)

فلـم يختر جاهين الخلوتـى لتعبده إلا موقعا مبـاركا وكأن جميع رجـالات مصر الصالحين قد اتفقوا فيما بينهـم على اللقاء فى المقطم أو أن هناك فريضة مصرية تقضى بدفن كل من صلح حاله وقلبه ورضى من الحياة بما قسمه له ربه سبحانه وتعالى فى هذا المكان ليلتقوا جميعا من كل عصر فوق هذه الأرض المصرية المباركة.

ويعـد جاهين الخلوتى حالة حضارية فريـدة إذ إنه فى الأصل من أبناء تبريز وتتدفق فى عروقه الدماء التركية والفارسـية ويعيش على أرض إيرانية.

فهـو واحد من أبناء فارس النجباء ولكـن الصدفة وحدها هى التى حملتـه إلى مصـر وجعلته مملوكا للأشـرف قايتباى ليجـرى عليه ما يجرى على غيره من المماليك.

إلا إن تركيبته الحضارية المتميزة قد جعلته ينظر إلى مصر بمنظور مختلـف. فلم يقنع بأن يكون مملـوكا أو أن يعيش حياة المماليك لتكون كل مهمته فى الحياة هى الحرب والاقتتال.

فهذه مصـر تناديه بكل شـوارعها وأزقتها وعلمائها ومسـاجدها وناسها الذين يألفون الغريب إذا ما ثبتت حسن نواياه.

والحل هو العودة إلى البلاد للاستزادة من العلم ووضع الأقدام على الطريق الصحيح ثم العودة مرة أخرى إلى أرض المحروسة مصر، بعد أن يشتد العود لمتابعة الطريق الذى لم يكن يستطيع السير فيه دون استحضار تجربة بلاده.

ويعود جاهين إلى مصر بعد أن يحصل على تجربة التعلم فى بلاده ويقرر أن ينزل بالمقطم وفى هذا المكان المتواضع الذى قدره له الله سبحانه وتعالى فيحفر لنفسه قبرا ويستمر بالمقطم لمدة تصل إلى الثلاثين عاما إلى أن توفاه الله تعالى وكأنه كان على موعد مع هذا الجبل الذى استقبل صلواته واعتزاله الحياة.

ومن يذهب إلى المقطم اليوم وفى نفس مكان جاهين الخلوتى يجد هذا البناء الضخم الذى يظهر منه جدرانه الأمامية فقط.

وبالنسبة للمئذنة فهى مئذنة عثمانية لا تختلف فى الكثير من تفاصيلها عن بقية المآذن العثمانية التى توجد على بر المحروسة من حيث التصميم، ولاتزال المئذنة موجودة بشكل ينبئ عن ماهية البناء الضخم. ويقال إن المسجد قد بنى فى الأساس بإشراف جاهين الخلواتى وأن هناك الكثير من الأجزاء فى المسجد تنتمى إلى عصور مختلفة.

ومحراب المسجد مبنى من الحجر النحيت ويحمل تاريخ البناء المنقوش ضمن النص المنحوت على عتب الباب وهو سنة ٩٤٥هـ. ثم كسى بالرخام الملون الذى اختفى الآن.

والمئذنة المنفصلة يلاصقها بناء ضيق من الحجر به شباكان ويوجد مبنى مواجه لباب المسجد نحو القبلة داخله قاعة مستطيلة حائطها الشرقى

الجبل وإلى الشمال الشرقى من هذه القاعة تقع القبة الشاهقة المبنية بالطوب وبرقبة القبة شباكان واحد مفتوح والآخر مغلق على التوالى.

أما المبانى الحاملة لها فمبنية من أسفل بالحجر النحيت مثل مبانى القاعة بالخارج. وكان يصعد إلى القاعة العليا عن طريق درج يقع بطرف هذه القاعة من الغرب. ولهذا السلم شبابيك ضيقة تفتح أما الجهة الشمالية للسلم فقد تهدمت ثم انهار السلم فى النصف الثانى من الثمانينيات من القرن العشرين.(٤٧)

وعلى وجه الجبل يقوم برج ضخم مبنى بالحجر تعلوه أطلال راكبة على الجبل. ويدل ذلك على وجود ساقية تأخذ من البئر المقام عليها هذا الدرج ومبانى هذا البرج تذكرنا بمبانى العصر الأيوبى أو عصر المماليك البحرية.. عصر السلطان الظاهر بيبرس أو الناصر محمد بن قلاوون.

وصف تفصيلى قد يأخذنا إلى مقام العارف بالله جاهين الخلوتى وإن كنا لا نجد فيه سوى امتداد لفكرة جبل الأولياء. فهذا المقام ربما غاب عن الذاكرة المصرية إلا إنه يظل خالدا بموقعه فى المقطم جبل الأولياء الذى طوفنا به وإن لم ندخل من كل أبوابه .فهو ليس مجرد مكان بل تقرير كامل للهوية المصرية التى توجد كل حكاياتها تحت ثراه.

فمنذ جاء عمرو بن العاص فاتحا مصر وحتى زمننا هذا دفنت به الكثير من الروايات وأصحاب الروايات من المصريين والمتمصرين.

فهنا آل بيت النبى ﷺ... وهنا كبار الدعاة والمفكرين.. وهنا قادة العرب والمسلمين.. وهنا أبناء الأسرة المالكة. وأبناء الطبقة المتوسطة وأولاد البلد المصريين فإلى الجميع تحية وسلام.